التفاعل الحضاري في تكوين اللغة وتطويرها

الاستاذ محمد المبارك

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

ان بين الاسلام واللغة العربية صلة وثيقة وتلازما طويل الامد عميق الغور عبر الزمان وعلى مر العصور وفي آفاق الارض التي وصلا اليها وبلغا حدودها وليس التساؤل عن وجود هذه الصلة فتلك بديهية مستقرة في الاذهان ولكن عن طبيعة هذه الصلة واسبابها وجوانبها وتجلية لهذا الموضوع نعرضه من جوانب مختلفة ونحاول ان نبرز مواطن اللقاء وانواع الارتباط بين الاسلام واللغة العربية .

اولا : الارتباط التاريخي :

اللغة العربية كما هو معلوم لغة معربة في القدم استقلت عن اخواتها الساميات وتميزت منهن بخصائص واخذت صيغا واشكالا انفردت بها وظهر الاسلام فكانت هي اللغة التي حملت رسالته وعبرت عن مبادئه وتعاليمه فنزلت آيات القرآن الكريم بها حتى اتم الله آياته فكان القرآن الكريم الكتاب العربي المبين كما وصفه فنزله سبحانه في عدد من آياته :

« انزلناه قرآنا عربيا » 12 ـ 2 و 20 ـ 113

« اوحينا اليك قرآنا عربيا 42 ـ 7 ، « انا جعلناه قرآنا عربيا » 43 ـ 3 ، « بلسان عربي مبين » 26 ـ 195 وآيات اخرى بهذا المعنى .

وكانت السنة اي اقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله التي رواها الصحابة المصدر الثاني للاسلام عربية اللغة كذلك وهكذا ترافق الاسلام واللغة العربية منذ ذلك الحين وسارا معا عبر القرون فكانت اللغة العربية معبرة عن الاسلام وحضارته وكان الاسلام متخذا من العربية وسيلة للتعبير عن عقيدته واحكامه واستمر ذلك حتى العصر الحاضر .

ثانيا : الارتباط الجغرافي :

ولئن كان الاسلام قد عم السواد الاعظم من العرب في وقت مبكر فانه سرعان ما تجاوز الدائرة العربية الى ما هو اوسع منها فدخل بلادا وعم شعوبا ليست العربية لغتها فنشر العربية في قسم من هذه البلاد حتى اصبحت لغتها الوحيدة وذلك كبلاد الشام والعراق وشمال افريقيا وانضافت شعوب هذه البلاد الى الدائرة العربية وان كانت لبعضها سابقة صلة بالعروبة ثم تجاوز الاسلام هذه الدائرة الى بلاد اعجمية اللغة فدانت شعوبها بالاسلام فكانت العربية بالنسبة اليها لغة الدين الجديد المشتمل على عبادات قوام شعائرها اللغة العربية وعلى معاملات

واحكام انما تؤخذ من مصادرها العربية في القرآن والسنة واقوال السلف وهكذا ظهرت احداث جديدة هامة نلخصها فيما يلي :

1 ـ اصبحت العربية لغة الثقافة بالنسبة الى الخاصة فنشأت طبقة من علماء الدين من الاعاجم تعلموا العربية وحذقوها ثم اتسع الامر فكانت لغة الثقافة بوجه عام ولم تقتصر على الثقافة الدينية اذ اصبحت لغة الحضارة الاسلامية في جميع ميادينها وتكون على مر العصور ذلك الانتاج الضخم في ميادين الفقه والعلوم الاسلامية واللغة والادب والفلسفة والتصوف والتاريخ والطب والعلوم اشترك في تكوينه ابناء البلاد التي دانت بالاسلام والتي غدت جزءا من الدولة الاسلامية ولو لم يكونوا عربا في انسابهم ولغاتهم .

2 ـ اثر العربية في لغات الشعوب الاسلامية :

وفي خلال هذا التمازج اللغوي والتفاعل الحضاري دخلت الفاظ عربية كثيرة في لغات تلك الامم التي دخلت في الاسلام سواء اكان من الفاظ العبادات ام كانت من الالفاظ التي ادخل الاسلام مفاهيمها الجديدة كصفات الله تعالى والمعاملات الفقهية والاحكام القضائية والتنظيمات الادارية والسياسية والمفاهيم الاخلاقية والدينية وشاعت هذه الالفاظ ودخلت في لغات تلك الاقوام .

3 ـ اصبحت اللغة العربية مصدرا تنهل منه تلك اللغات ما تحتاج اليه من الفاظ حضارية جديدة اما لفقدان هذه الالفاظ فيها او لقصورها عن توليدها او رغبة في جمال اللفظ العربي المعبر عنها .

وهكذا دخل عن هذه الطريقين كثير من الالفاظ العربية في اللغات الفارسية والتركية والكردية والسواحلية وغيرها بنسبة كبيرة .

4 ـ ونضيف الى ذلك امرا آخر ذا شان كبير وهو شيوع **الحرف العربي** باعتباره اداة لكتابة لغات الشعوب الاسلامية فاصبحت اللغة الفارسية والتركية والاوردية والجاوية (لغة اندونيسيا والملايو) وغيرها تكتب بالحروف العربية وقد وضعت للاصوات التي ليس لها في العربية حرف يصورها اصطلاحات خاصة كالباء المنقطة بثلاث نقط لرسم حرف الـ (P) في الفارسية والتركية وغيرها من الحروف التي ليست في العربية .

وهكذا كان سببا في **انتشار الكتابة العربية** او الرسم العربي في دائرة واسعة جدا تشمل شعوبا كثيرة مختلفة اللغات فكان بذلك حدا ادنى من التفاهم عن طريق الكتابة والحروف وهذه ظاهرة اجتماعية لغوية ذات آثار بعيدة في تفاهم الشعوب والتقائها وتعاونها تشبه ما عند الامم الاوربية التي تستعمل الحروف اللاتينية وتشترك في عدد من المفردات .

وهكذا فان الاسلام كان سببا في انتشار العربية لدى نخبة عالية من ابناء الشعوب التي تدين بالاسلام والمنتشرة في اقطار آسيا وافريقيا وفي انتشار عدد كبير من الالفاظ العربية في لغاتها وفي استعمال الحرف العربي وذلك كله يسهل تعليم اللغة العربية مع وجود الدوافع الدينية والثقافية لتعلمها وهي فعلا تعتبر اللغة الثانية في كثير من هذه البلاد . بل ان ثمة عددا كبيرا من المدارس والمعاهد والجامعات تعلم باللغة العربية او تجعلها في المحل الاول بعد لغة البلاد في كثير من البلاد الاسلامية كايران وباكستان واندونيسيا .

الارتباط الفكري والحضاري :

ان الاسلام اذ اتخذ من العربية لغته منذ ظهوره استعمل مفرداتها للدلالة على مفاهيمه الجديدة فاكتسبت كثير من الالفاظ معاني جديدة حملها الاسلام وكثيرا من ما نسي المعنى اللغوي الاصلي وبقي المعنى الجديد كلفظ الجهاد والانفال والزكاة والجنة .

لغة خالدة لمفاهيم خالدة :

وثمة نكتة هامة لم يلتفت اليها الباحثون الالتفات الواجب ولم يولوها ما تستحق من العناية بل لعلهم لم ينتبهوا اليها وهاانئذ اعرضها بين يدي الاخصائيين وقراء العربية عامة .

ان الاسلام جاء بعقائد ومفاهيم ثابتة لا تتغير ولا ينبغي ان تتغير ولكن اتى لنا ذلك واللغة تتطور

ودلالة الالفاظ او معانيها في تبدل مستمر في جميع اللغات ؟ وهنا نجد في اللغة العربية وحدها دون غيرها الحل لهذه المشكلة . ذلك ان من خصائص اللغة العربية ثبات الحروف الاصلية الثلاثة من كل مادة مهما يطرأ على الكلمة من تبدل في اشتقاقها وصيغتها كحروف ع ل م فان جميع الالفاظ التي اشتقت او يمكن ان تشتق من هذه المادة كالعلم والعلوم والعلماء والاستعلام والمعلومات والمعالم والتعليم والاعلام وغيرها من الالفاظ المشتقة من هذا الاصل تشتمل على جميع الحروف الثلاثة ويقابل ثبات الحروف الثلاثة ثبات المعنى الاصلي والمفهوم المشترك بين الالفاظ وهكذا تبدو خاصة بثبات الاصول في صورتها اللفظية ودلالتها المعنوية وهذه الخاصة هي التي يتطلبها الاسلام لامكان تثبيت المفاهيم التي يريد تثبيتها في مبادئه واحكامه مع بقائها واستمرارها في اللغة الشائعة المستعملة عند ابنائها دون ان تحدث فجوة واسعة بين الاصل اللغوي المستعمل وما انتهى اليه في صورته ومعناه وهكذا يبقى ابناء العربية على صلة وثيقة وفهم صحيح للنص القديم مهما يطل العهد به . واما اللغات الاخرى فان الالفاظ فيها يعتريها التبدل والتحول في صورتها حتى تتغير حروفها واصواتها فلا تكاد تعرف اصلها وفي دلالتها المعنوية كذلك وبهذه الصورة يصبح بين الفاظ النص القديم وما انتهت اليه هذه الالفاظ في تطورها بون كبير يؤدي اما الى جهل المعنى القديم او الى الوقوع في خطأ جسيم يحمل اللفظ القديم على اللفظ الحديث او المعنى الجديد .

فالفاظ الحق والمدعى والقضاء والحكم واليمين والبينة والشاهد والرهن والاجل والعقد والشرط والخصم وغيرها كذلك من الفاظ العقائد والعبادات ثابتة المعنى ولا تزال مستعملة ومفهومة من الناس الى يومنا هذا .

مصطلحات جديدة :

وقد ظهرت بعد الاسلام مصطلحات لغوية في ميادين الفقه والكلام والتصوف والفلسفة والمنطق والسياسة والادارة واصبحت جزءا من الثقافة الاسلامية وثبت الكثير منها في المعاجم اللغوية او على الاقل في اللغة العربية التي يستعملها الادباء والكتاب وربما دخلت لغات الشعوب الاسلامية باعتبارها مصطلحات اسلامية باللغة العربية كهذه الالفاظ :

(العقد الفاسد، المسافاة، الذات والصفات، والفناء ووحدة الشهود والمرض والجوهر والدور والتسلسل وامثالها) .

القرآن الكريم :

وقد كان القرآن العظيم عاملا قويا في كل ما تقدم لان المسلمين اجمعوا على ان القرآن بنصه العربي المنزل المحفوظ حتى يومنا هذا هو وحده القرآن وان ترجمته الى اي لغة اخرى لا تسمى قرآنا وليس لها احكامه فلا تكون مصدرا للاستنباط ولا يتعبد بها بل لا يجوز ترجمته ولكن ترجمة معانيه بحيث تعتبر الترجمة تفسيرا له باللغة الاجنبية وبناء على هذا الاساس حرص المسلمون على تعلم القرآن بنصه العربي حفظا او حفظا وفهما وبقدر الطاقة واكثروا من تلاوته تعبدا بحروفه العربية التي اضطروا الى تعلمها فكان ذلك عاملا هاما في تقوية هذه الصلة بين الاسلام واللغة العربية وفي انتاج النتائج الكثيرة التي بيناها فيما سبق من كلامنا .

ومن اجل هذا ايضا كان من مداخل الشعوبية وطرائقهم ابعاد الناس عن الفصحى لاحلال العامية مكانها والدعاية لترك الحروف العربية والكتابة العربية والسعي لالغاء النحو العربي وافساد ملكة اللغة وذلك كله يؤدي طبعا الى ابعاد الناس عن الفصحى والى تفرقهم امما مختلفة والى تهديم هذا الجسر العظيم الذي يصل بينهم ومعهم الشعوب التي دانت بالاسلام وقرات القرآن وتعلمته وتعلمت الحرف العربي بل اتخذته اداة للغتها .

وبهذه الدراسة يبدو لنا الطريقان : طريق التشتت والتطفل على الغير وطريق الوحدة وثبات الذات والتحرر وذلك هو طريق الحرف العربي واللغة الفصحى والقرآن العظيم المنزل بلسان عربي مبين .